

## التناص في منظور الأدب المقارن : مرحلة رابعة :مادة الادب المقارن

أ.د.سعد التميمي

برز مصطلح التناص حديثاً في تاريخ النقد الأدبي تحديداً في منتصف الستينات على يد جوليا كرسنيفا (أن كل نص هو عبارة عن فسيفساء من الاقتباسات، وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى) أو التفاعل النصي في نص بعينه إلا أنه يرجع إلى استاذها الروسي (باختين) وإن لم يذكر هذا المصطلح صراحة واكتفي (الحوارية) و(تعدد الاصوات) من خلال كتاباته عن الروائي (دستو فيسكي) .

أن الأدب المقارن مفتوح على الاتجاهات النقدية الحديثة ومتفاعل معها بدرجات متفاوتة وتعد نظرية التناص قريبة من الدراسات المقارنة، وذلك لأنّ علاقات التناص لا تنشأ بين أعمال أدبية تنتمي إلى أدب قومي واحد، بل تتخطى ذلك إلى آداب وثقافات متعددة ليكون التناص الذي يخرج عن النطاق القومي ميداناً جديداً من ميادين الأدب المقارن لاستيعاب المناهج النقدية الجديدة ومعرفة تبعاتها وانعكاساتها على حقله المعرفي، وما إذا كان باستطاعته أن يستفيد منها نظرياً وتطبيقياً.

يعرف "رولان بارت" النص بأنه "نسيج من الاقتباسات والإحالات والأصداء من اللغات الثقافية السابقة أو المعاصرة التي تخترقه بكامله" فهو يتحدث عن النص بوصفه جيولوجيا كتابات، منطلقاً من مفهوم كرسنيفا للنص التي ترى أنه "مبني على طبقات وتتكون طبيعته التركيبية من النصوص المتزامنة له والسابقة عليه"، حيث تحليلنا هذه التعاريف إلى مفهوم جديد في لغة النقد المعاصر هو التناص.

### نظرية التناص:

تعد فكرة "التناص" من الأفكار المركزية لنظرية الأدب والثقافية المعاصرة، وقد برزت أواخر الستينيات من القرن العشرين، ويعود الفضل في ذلك إلى "جوليا كرسنيفا" التي قدمت تأطيراً مفهوماً لهذه الفكرة في مقال لها عن "ميخائيل باختين" صدر في عام 1966 بعنوان "الكلمة والحوار والرواية" وفي مقالات وكتب أخرى ظهرت بعد هذا التاريخ حتى أوائل السبعينيات.

ثم استثمرته من بعدها جماعة تيل كيل التي طرحت من خلاله صيغة النص المتعدد الذي "يتوالد في الآن عينه من

نصوص عديدة سابقة عليه "التناص من وجهة نظرها هو "التقاطع داخل نص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى" وقد شاع تعريفها المحدد للتناص باعتباره التقاطع والتعديل المتبادل بين وحدات عائدة إلى نصوص مختلفة".

وقبل كرسيفا كان باختين في كتاباته المتأخرة قد تناول هذا المفهوم بطريقة أخرى وهو يعالج الشكل الحوارى حيث كان يرى أنه مهما كان موضوع الكلام فإن هذا الموضوع قد قيل من قبل بصورة أو بأخرى". فهو يؤكد حتمية السقوط في دائرة التناص، ويرى تودوروف أن باختين يعتبر التناص "بعدا ضروريا وجوهريا في جميع أنواع الخطاب: المحادثة اليومية، القانون، الدين، العلوم الإنسانية" بينما يتضاءل دوره في العلوم الطبيعية، غير أن باختين عبر عن هذا المفهوم بالحوارية بدلا من التناص "للدلالة على العلاقة بين أي تعبير والتعبيرات الأخرى"، على العكس من نورثروب فراي الذي سعى إلى نبذ أي تاريخ باستثناء تاريخ الأدب، فالأعمال الأدبية عنده "مصنوعة من أعمال أدبية أخرى وليست من أية مادة خارجة عن النظام الأدبي نفسه" فهو ينظر إلى الأدب كما يشير تيري إيجلتن على أنه "دوران بيئي مغلق للنصوص". هذا المفهوم الرئيسي لمصطلح التناص الحديث يجعلنا نتعامل معه باعتباره ظاهرة قديمة شهدها تاريخ الحقل الأدبي، بل إنها أصبحت قانونه الطبيعي الذي لا مفر منه للنصوص المستقبلية، فهي أحد شروط الإنتاج الأساسية للعمل الأدبي التي سنمنحها مصطلح التناصية.

### أشكال التناص:

إن العمل الأدبي يمثل نقطة ترتبط بمجموعة من النقاط الأخرى التي لا ينقطع تواصله معها مستمدا بعض سماته منها وتختلف هذه السمات من طريقة إلى أخرى ومن كاتب إلى آخر إذ يختلف تداخل نص مع نصوص سابقة، ويتنوع بحسب الاستفادة، فالتناص أشكال متعددة، منها:

1- التناص القرآني: يقتبس فيه الأديب نصاً قرآنياً، ويذكره مباشرة، أو يكون ممتداً بإيحاءاته وظله على النص الأدبي، لنلمح جزءاً من قصة قرآنية، أو عبارة قرآنية يدخلها في سياق نصه.

2- التناص والتراث الشعبي: وتكون المحاكاة فيه على مستوى اللغة الشعبية، وهذا مما يؤخذ على بعض الأدباء، إضافة إلى الاستفادة، وتوظيف القص الشعبي، والحكايات القديمة، والموروث الشعبي.

3- التناص الوثائقي: وهذا النوع في النثر أكثر منه في الشعر كالسرود والسيرة، فيحاكي النص نصوصاً رسمية كالخطابات، والوثائق، أو أوراق أخرى كالرسائل الشخصية والإخوانية؛ لتكون نصوصهم أكثر واقعية.

4- التناص والأسطورة: وهي تتشابه مع سابقها من ناحية الاستفادة من التراث، لكنها تختلف من ناحية أن الأسطورة غالباً ما هي موروث؛ لكنه يوناني، أو غربي، وإن كان هناك بعض الأساطير العربية، إلا أنها قلة مقارنة بالغرب.

## أنواع التناص:

### 1- التناص المباشر أو الظاهر (تناص التجلي):

فيدخل تحته ما عُرف في النقد القديم بالسرقة و الاقتباس، والأخذ والاستشهاد والتضمين، فهو عملية واعية تقوم بامتصاص وتحويل نصوص متداخلة، ومتفاعلة إلى النص، ويعمد الأديب فيه أحياناً إلى استحضار نصوص بلغتها التي وردت فيها، كالأيات القرآنية، والحديث النبوي، أو الشعر والقصة.

### 2- التناص غير المباشر (تناص الخفاء) :

فينضوي تحته التلميح والتلويح والإيماء، والمجاز والرمز، وهو عملية شعورية يستنتج الأديب من النص المتداخل معه أفكاراً معينة يرمي بها ويرمز إليها في نصه الجديد، ويحلو للبعض تفريعه بإيجابي وآخر سلبي، ويقصد بالأول إنتاج أفكار قديمة بأسلوب جديد، أما السلبي فهو كالصدى المكرر للنص الذي سبقه، إلا أن جميع هذه الأنواع تعتمد على فهم المتلقي، وتحليله للنص.

### التناص في الأدب العربي القديم والمعاصر :

وإذا ما انتقلنا لمفهوم التناص ونشأته في الأدب العربي نجد أن مفهوم التناص هو مصطلح جديد لظاهرة أدبية ونقدية قديمة ؛ فظاهرة تداخل النصوص هي سمة جوهرية في الثقافة العربية حيث تتشكل العوالم الثقافية في ذاكرة الإنسان العربي ممتزجة ومتداخلة في تشابك عجيب ومذهل ، فالتأمل في طبيعة التأليفات النقدية العربية القديمة يعطينا صورة واضحة جدا لوجود أصول لقضية التناص فيها ، وقد اقتفى كثير من الباحثين العرب المعاصرين أثر التناص في الأدب والنقد العربي القديم فأظهروا وجوده فيه تحت مسميات أخرى وبأشكال تقترب بمسافة قد تكون ملاصقة للمصطلح الحديث، وقد أوضح ذلك الباحث المغربي الدكتور (محمد بنيس) حيث بين أن الشعرية العربية القديمة قد فطنت لعلاقة النص بغيره منذ الجاهلية وضرب مثلا للمقدمة الطلالية، تعكس شكلا لسلطة النص (وقراءة أولية لعلاقة النصوص ببعضها وللتداخل النصي بينها)فكون المقدمة النصية تقتضي ذات التقليد الشعري من الوقوف والبكاء وذكر الدمن وأثار منازل الضاعنين فهذا إنما يفتح أفقا واسعا لدخول القصائد في فضاء نصي متشابك ، ووجود تربة خصبة للتفاعل النصي بينها.

وإذا تتبعنا أصول التناص في كتابي (الموازنة)للأمدي بين (أبي تمام والبحتري) و(الوساطة بين المتنبي وخصومه) للجرجاني تعكس شكلا من أشكال التناص ولما كانت السرقة كما يقول (جينيت) صنفا من أصناف التناص ، فإنه يمكن

عد كتب(سرقات ابي نؤاس)لمهلل بن يموت و (سرقات ابي تمام) لابي الفضل احمد بن طاهر،و(سرقات البحتري من ابي تمام) لأبي ضياء بشر بن تميم،و(الرسالة الحاتمية والرسالة الموضحة في سرقات ابي الطيب المتنبي)لابي علي الحاتمي،و(المنصف في الدلالات على سرقات المتنبي)لابن وكيع المصري،و(الإبانة عن سرقات المتنبي) لمحمد بن احمد العميدي، وغيرها،تظهر بشكل جلي مدى تأصل ظاهرة التناص في الشعر العربي القديم، وهذا لا يعد أمراً غريباً لأن التناص أمر لا بد منه ، وعلى الرغم من هذه الموازنات والسرقات والمعارضات والجدل الطويل الذي دار بين النقاد القدامى الذين درسوا هذه الظواهر التي تتفاوت فيها الصلة بين النص الجديد والنص القديم إلا أن هذا الجهد يدل على انشغال ببعض، وإدراك النقاد القدامى للغة والأسلوب من جهة وبنية الخطاب من جهة أخرى، وهكذا أنزلوا الأولى منزلة السرقة، والثانية منزلة الإجبار الذي هو شرط أسبق في بناء الخطاب، وبذلك يكونون قد أدركوا مفهوم التناص ووجوده الموضوعي .

وقد مر التناص في الأدب العربي ببدايات غنية تناسب عصوره القديمة وعاد من جديد للظهور متأثراً بالدراسات اللسانية الغربية الحديثة كمصطلح له أصوله ونظرياته وتداعياته، ففي الأدب العربي المعاصر حظي مفهوم التناص باهتمام كبير لشيوعه في الدراسات النقدية الغربية نتيجة للتفاعل الثقافي وتأثير المدارس الغربية في النقد والأدب العربي ، وكانت دراسة التناص في بداياتها قد اتخذت شكل الدراسة المقارنة وانصرفت عن الأشكال اللفظية والنحوية والأسلوبية والدالية،وقد انصبت دراسة التناص في الأدب الحديث أول الأمر في حقول الأدب المقارن والمثاقفة.

### المدرسة الأمريكية والنقد الجديد:

يعرف "هنري ريماك" الأدب المقارن بحسب المدرسة الامريكية "دراسة العلاقات بين الأدب ونواحي المعرفة الاخرى بما فيها الفنون الجميلة والفلسفة والتاريخ والعلوم، ويتصدى الأدب المقارن إلى المقارنة بين أدب وأدب/ أدب وآداب/ أدب ومجالات التعبير المخالفة للأدب كالرقص مثلاً".

فالناقد الامريكي "رينيه ويليك" أبرز ممثلي هذا الاتجاه على دراسات التأثير وأسسها الفلسفية والنظرية وتطبيقاتها ودورها، إلى دراسات التأثير نقد المدرسة الفرنسية التقليدية ونسف أسسها ومرتكزاتها .

اذ يرى انها مثقلة بأعباء فلسفات القرن التاسع عشر، كالنزعتين التاريخية والوضعية، وأنها تتعامل مع النصوص الأدبية بصورة خارجية، وفي منأى عن أدبيتها، ولا تتعامل مع الأبعاد الداخلية لتلك النصوص،أي مع جوهرها الفني والجمالي. وبهذه المناسبة ذكّر ويليك زملاءه الفرنسيين التقليديين بأنّ العمل الأدبي "بنية ذات طبقات من الرموز والمعاني المستقلة تمام الاستقلال عن العمليات التي تدور في ذهن الكاتب أثناء التأليف، ولذا فهي مستقلة أيضاً عن المؤثرات التي قد تكون شكّلت ذهنه"،

فالعمل الأدبي بحسب ويلك يفقد أدبيته بمجرد أن يجرد من تلك البنية، وهذا هو ما تفعله دراسات التأثير التي تقفز فوق جوهر الأعمال الأدبية، أي فوق أدبيتها وجماليتها، وتتعامل معها كمجموعة من المؤثرات والوسائط الخارجية، مما حوّل تلك الدراسات إلى عمليات مسك دفاتر ثقافية تبين ما صدره أدب قومي إلى الآداب الأخرى وما استورده منها من مؤثرات

فالاختلاف بين الاتجاه التاريخي (الفرنسي) في الأدب المقارن وبين "النقد الجديد" الذي مثله رينيه ويليك، يعود إلى التحول الذي شهده النقد الأدبي والدراسات الأدبية في أوائل القرن العشرين، من خلال انتقال مقاربة النصوص الأدبية من المقاربة الخارجية إلى المقاربة الداخلية.

وقد بدأ هذا التحول "الشكلانيون الروس" وواصله "النقد الجديد" والبنوية والاتجاهات مابعد البنوية، وهو تحوّل شكّل منعطفاً حاداً في تاريخ الفكر النقدي في العالم لقد رفض رينيه ويليك المنهج الفرنسي التقليدي في الأدب المقارن، ودعا إلى منهج يتعامل مع جوهر الأدب، أي إلى منهج نقدي في الأدب المقارن، إنه منهج بات يعرف "بالمدرسة الأمريكية" أو "المدرسة النقدية"، وهو منهج يدرس الظواهر الأدبية بصورة تتجاوز الحدود القومية لتلك الظواهر، فالظواهر الأدبية الرئيسية، من أجناس وتيارات أدبية، لم تكن في يوم من الأيام محصورة في أدب قومي واحد أو مقتصرة عليه، بل تتعداه إلى آداب قومية مختلفة، وكثيراً ما تكون عالمية. وعندما يدرسها المرء دراسة مقارنة فإنه لا يتصنّع شيئاً بل يدرسها في إطارها الطبيعي الصحيح.

إلا أنّ المدرسة الأمريكية لم تكتفِ بنقل اهتمام الأدب المقارن من العلاقات الخارجية إلى العلاقات الداخلية للأدب، بل تخطّت ذلك إلى المطالبة بأن تنفتح الدراسات المقارنة على نوع آخر من المقارنات، ألا وهو مقارنة الأدب بالفنون والعلوم وحقول المعرفة والوعي الإنساني الأخرى، فالفنون كالموسيقا والتصدير، هي ظاهرة جمالية تنطوي على أوجه تشابه كثيرة مع الأدب، ولذا فإنّ دراستها يمكن أن تقرّبنا من فهم الأعمال الأدبية، ويمكن أن تؤدي مقارنتها بالأدب إلى الكشف عن جوهره أليس المثل الأعلى للوحدة الفنية في العمل الأدبي مستمدّاً من الوحدة الفنية في الموسيقا والتصوير؟ ويمكن أن يقال عن علاقة الأدب بالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والعلوم الإنسانية الأخرى شيء مشابه. فهي علوم يمكن أن تقدّم مساعدة كبيرة في فهم الأعمال الأدبية.

وباختصار فإنّ جوهر الدراسة المقارنة للآداب من وجهة نظر "أمريكية"، يكمن في فهم البنى الداخلية، أي الجمالية للأعمال الأدبية، لافي حصر ما تنطوي عليه تلك الأعمال من مؤثرات أجنبية، وما مارسته على الأعمال الأدبية الأجنبية من تأثير، وهذا ما يمكن أن نجد فيه أن الأدب المقارن يتداخل مع النقد الأدبي ونظرية الادب للحد الذي لا يمكن الفصل بينها ولم يخش رينيه ويليك أي اعتراض في هذا المجال، وبذلك يكون النقد الأدبي مقارناً يتجاوز الحدود اللغوية والقومية للآداب وكذلك يكون الأدب المقارن نقداً يتعامل مع النصوص الأدبية كبنى جمالية، لا مؤثرات ليكون

الأدب المقارن نقداً، والنقد أدباً مقارناً، لتختفي الحواجز بين الأدب المقارن والنقد الأدبي، فالأدب يتجاوز بطبيعة الحال حدود اللغات، ولذلك لا يجوز أن يدرس إلا بصورة مقارنة وهو بنى وقيم جمالية، ولذلك لا يجوز أن يقارب إلا بصورة نقدية إنَّ الأدب المقارن الحقّ هو في جوهره نقد أدبي، والنقد الأدبي الحقّ هو في جوهره أدب مقارن وهكذا أعاد رينيه ويليك اللحمة إلى علاقة الأدب المقارن بالنقد الأدبي، ليؤدي هذا التحول إلى ولادة المدرسة "الأمريكية".

ويرى بعض الباحثين ان المدرسة الفرنسية تقوم على تاريخ الأدب فهي مدرسة تاريخية أدبية و المدرسة السلافية تستند إلى نظرية الأدب الماركسية (المادية الجدلية) فهي "مدرسة مادية جدلية" أو ماركسية، أما المدرسة الأمريكية فانها تستمد أسسها من النقد الجديد، لذلك تسمى "مدرسة نقدية"، والمنهج التاريخي ليس محصوراً في فرنسا، ولا المنهج النقدي في أمريكا ولا المنهج الماركسي في أوروبا الشرقية، فدراسات التأثير تمارس في كثير من الأقطار، خارج فرنسا، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية وأقطار أوروبا الشرقية.

وقد حاول الفرنسيون رينيه إيتامبل وبرونيل، بيشوا، روسو وضع كتاباً في الأدب المقارن ابتعدوا فيه عن "المدرسة التقليدية الفرنسية" وحاولوا التوفيق بين الاتجاهين التاريخي والنقدي، واختار بعض الاميركيين اختاروا المدرسة الفرنسية منهجا في دراساتهم المقارن وكذلك فعل بعض الدارسون في اوربا الشرقية .

### النقد المقارن والتناص:

لم يقتصر تفاعل الأدب المقارن مع المناهج النقدية الحديثة المعاصرة كالبنوية والسيمايية والتفكيكية، فلما كان هذا العصر يتميز بالتحويلات السريعة في الصناعة والتقنية والعلوم الطبيعية والتطبيقية و العلوم الإنسانية ومنها الأدب والأدب المقارن فلا بد أن يتطور بسرعة تناسب إيقاع العصر، ولا يمكن أن يقتصر التطور على الجوانب النظرية، ليشمل الجوانب التطبيقية والا تكون الدراسة التطبيقية مقتصرة على التأثر والتأثير خاصة إذا أخذنا الأدب المقارن بمفهومه النقدي الذي يعرف بالمدرسة الأمريكية، ذلك المفهوم الذي يدرس الأدب المقارن بموجبه الظواهر الأدبية في جوهرها الجماليّ بصورة تتجاوز الحدود اللغوية والقومية للأداب من جهة، ويقارن الأدب بالفنون ومجالات الوعي الإنساني الأخرى وتوظيف المنهج المقارن لنظرية التناص الذي يعد من اولويات المدرسة الامريكية فى النقد المقارن.